الثقافة الاسلامية ومكانة اللغة العربية في الجزائر قبل الاستقلال

محمد بنار
أستاذ بكلية الآداب بالرباط

I ـ نظرة عامة :

أشار البرنامج الذى وضعته اللجنة الوطنية للثورة الجزائرية المعروف «بميثاق طرابلس» الى ضرورة بعث الثقافة الوطنية وتعريب التعليم تعريبا تدريجيا مستندا على أسس علمية صحيحة .

ان لهذه الفقرة ، بالرغم عن قصرها وايجازها ، مفاهيم كثيرة ومعنى غزيرا ، حيث انها تدل بديهيا على ان التعليم فى الجزائر العربية ، ليس بعربى ، وان ثقافة الشعب الجزائرى فى حاجة الى الانبعاث بعد فترة الاستعمار الطويلة التى لم يأل الحكام الاجانب جهدا أثناءها ، فى سبيل القضاء على مميزات البلاد الثقافية ومقوماتها الروحية .

فمن بين سائر البلدان العربية التى اصيبت بنير الاستعمار ، لم يعرف التاريخ ، فى حقيقة الامر بلادا، بذل فيها المستعمرون الاجانب ما بذله الفرنسيون فى الجزائر من جهود متواصلة جبارة طوال مائة واثنتين وثلاثين سنة لمحاربة اللغة العربية والدين الاسلامى ، وفرنسة الشعب الجزائرى ماديا وفكريا وعاطفيا .

وذلك لان المستعمرين الفرنسيين ، كغيرهم من المستعمرين اللاتينيين ، بعد اختلاسهم لاراضى البلاد وأرزاقها ، أصبحوا يعتقدون ان ثرواتهم المغتصبة تظل معرضة للخطر ما دام استيلاؤهم على ارواح الاهالى غير كامل ، اى ما دام الاهالى يأملون فى التحرر ويفكرون فى وسائله ، فلذلك ما فتئوا يسعون فى سبيل القضاء على كل ما من شأنه أن يضمن للشعوب المستعمرة المحافظة على شخصيتها ومميزاتها الخاصة ، تمهيدا لادماج تلك الشعوب فى نطاق حضارتهم ، وتقاليدهم الاجتماعية ، وآفاقهم الفلسفية والدينية ، الامر الذى يستوجب فى نظرهم القرون بل العشرات من القرون لا لاستحالة حرمان الشعوب المستعمرة من ثقافتها الموروثة ولكن لما تحتاج اليه طبائعهم المتوحشة القديمة، ومواهبهم الذهنية البسيطة من الآجال لتفهم المدنية واستيعاب الثقافة الفرنسية الراقية .

وبصرف النظر اذن عما يرمى اليه المستعمرون المسؤولون بمقاومتهم للغة العربية وللتعاليم الاسلامية من اهداف سياسية بعيدة المدى ، فهناك فئة ضئيلة من الفرنسيين الذين لم يقاوموا الثقافة العربية الا لجهلهم اياها والحط من قيمتها ، ولاقتناعهم بتفوق الثقافة الفرنسية الجديرة بتنوير النفوس وتحرير العقول .

وهكذا فان كان الاولون منهم ينتمون الى طائفة المستعمرين المتعصبين الاقحاح ، فان الآخرين ينتسبون الى جماعة السياسة المعروفة بالسياسة الاستعمارية «الابوية» لان كلا من الفريقين يخول لنفسه الحق فى تسيير شؤون الشعوب المستعمرة وحمايتها .

وفى الواقع فان سياسة فرنسا التعليمية فى الجزائر كانت تتسم بالاضطراب والفوضى ، وان أجمع معظم المسؤولين الفرنسيين على محاربة الثقافة تطبيقا لسياسة الادماج واتقاء بأس الوطنية التى كانت تستوحى روحها من الحضارة الاسلامية ، فمنهم من كان يدعو الى نشر اللغة الفرنسية وتنمية تعليمها أملا فى فرنسة الشعب الجزائرى . ومنهم من ينادى بحرمان الجزائريين من كل تعليم عربيا كان ام فرنسيا ، بدعوى ان فى تثقيف الاهالى خطرا على السيادة الفرنسية فى البلاد ، وأشد الفرنسيين تعصبا لمبدا تجهيل الجزائريين الاربيون القاطنون فى الجزائر . الامر الذى ادى الى جدال مستمر بين الجانبين وتضارب بين المبدأين وحسب الظروف ولون الحكومات السياسية فى فرنسا

كان الانتصار تارة لمبدا نشر التعليم وفى غالب الاحيان لعدم نشره .

ومع توالى السنين اسفرت سياسة فرنسا التعليمية الادماجية عن نتيجتين متباينتين : نجحت او كادت فى مقاومتها للغة العربية وفشلت او كادت فى فرنسة الشعب الجزائرى عن طريق التعليم فى المدرسة الفرنسية لتفاهة هذا التعليم لا من حيث الكم فحسب بل حتى من حيث الكيف ، فلا فرنسا تركت المجال للجزائريين لتعلم لغتهم ولا هى علمتهم لغتها.

نعم ، ان هناك فئة من الجزائريين تكونت فى الميدان الثقافى تكونا فرنسيا خالصا . غير ان هذه الفئة قليلة جدا بالنسبة لمعدد السكان فى البلاد ، من ناحية، وبالنسبة لطول المدة التى ظلت الجزائر خلالها تحت النفوذ الفرنسى من ناحية اخرى .

وبالاضافة الى هذه الظاهرة الغريبة ، نلاحظ ، الى جانب وجود الطبقة المثقفة بالفرنسية طبقة اخرى ، اقل عددا بكثير من الاولى ، وتخرجت اثناء السنين الاخيرة من المدارس الجزائرية الحرة او من جامعات البلاد العربية كالقرويين والزيتونة والازهر . وثقافة هذه الطبقة بالطبع ثقافة عربية تقليدية صرفة .

واما الذين ساعدهم الحظ واكتسبوا ثقافة مزدوجة، فعددهم قليل جدا حيث ان الازدواجية فى التعليم الرسمى الفرنسى الجزائرى لم تتم الا فى السنوات الاخيرة قبيل الاستقلال وفى عدد ضئيل من المدارس .

وهذه ظاهرة هامة ميزت بين التعليم الفرنسى العربى فى تونس والمغرب حيث اعطت البرامج الرسمية مقاما لا بأس به للحصص العربية سواء كان ذلك فى التعليم الابتدائى او فى الثانوى وبين التعليم الفرنسى فى الجزائر حيث ظل فرنسيا صرفا طوال مدة الاستعمار .

* * *

وعلى ضوء هذه المقدمة يسعنا الآن ان نعود بالذاكرة الى السنوات الماضية لنحاول اكتشاف الحالة التى كانت عليها اللغة العربية فى الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسى (سنة 1830 م) وكيف تطور تعليمها وتعليم الفرنسية اثناء المائة والاثنتين والثلاثين سنة اى خلال الحقبة التى كانت الجزائر فيها تحت سلطان الفرنسيين ، والغاية من هذه الدراسة استخلاص المعطيات التى يمكن بمقتضاها تعريب التعليم فى الجزائر (تعريبا تدريجيا مستندا على أسس علمية صحيحة) كما نص عليه «ميثاق طرابلس» .

2 ـ التعليم الوطنى قبل الاحتلال :

فى الجزائر كما فى سائر البلاد العربية كان أساس الثقافة بوجه عام والتعليم بوجه خاص الدين ، وكل ما كان يمت من قريب او من بعيد الى حياة الشعب الجزائرى فى الميدان المعنوى الاخلاقى ، كان داخلا فى نطاق مهام المؤسسات الدينية لا فى نطاق مسؤولية الحكومة والادارات .

وهذه الظاهرة كانت أكثر تجليا فى جزائر ما قبل الاحتلال الفرنسى حيث كانت السلطة الحاكمة فى يد العسكريين الاتراك الذين كانوا يمتازون بضعف ايمانهم ويتسمون بقلة تعبدهم .

وهذه المؤسسات هى الجمعيات الخيرية كالاوقاف او الاحباس والجمعيات او الطرق الصوفية المعروفة فى المغرب العربى «بالزوى» عامية زوايا والمفرد منها زاوية . فالى الاوقاف والى «الزوى» يرجع الفضل فى تشييد المساجد ، والمساجد الجوامع ، وضرائح الاولياء. وكانت قد جرت العادة ان تبنى مدرسة او كتاب بازاء كل مسجد او كل ضريح ولى ، وذلك فى المدن والقرى على السواء .

ولم تكن الحكومة تمد هذه المؤسسات بنفقة ولا بمنحة كيفما كان قدرها او نوعها وميزانياتها كانت تزود بفضل دخل الاملاك واراضى الفلاحة التى كان بعض المؤمنين من اهل التقوى والصلاح يحبسونها على معاهدها الدينية والتعليمية .

فبناء المعاهد التعليمية ، واصلاحها ، وتجهيزها وتأثيثها ، كرواتب رجال التعليم واصحاب المناصب الدينية ، كان كل ذلك على نفقة الاوقاف . غير ان محصول الاوقاف لم يكن ينفق كله على هذا ، بل منه ما كان يخصص لتأدية سفر المعوزين من الحجاج كما كان ينفق بعضه على المحافظة «على عيون الماء» والسقايات والميضاءات او على اصلاح بعض ثكنات الحرس من الاتراك ، ولكن كانت اموال الاوقاف فى الغالب تنفق على المشاريع الاجتماعية . فأوقاف «سبل الخيرات» مثلا ، وهى جمعية خيرية كانت تتولى السهر على المساجد الحنفية الثمانية بالجزائر العاصمة وكان يقدر (سنة 1837) مدخولها السنوى بـ 13.239 فرنك وكان هذا المبلغ يخصص كله للمساجد المذكورة

وللمعاهد التعليمية التابعة لها . واما مبلغ محصول الاملاك المحبسة على الجامع الكبير بالعاصمة فكان 12.000 فرنك .

أ ـ التعليم الابتدائي :

وخلاصة القول ، فالمؤسسات المذكورة من «الزوى» ومن جمعيات الاوقاف هي التي كانت تتولى الاشراف على التعليم وهي التي كانت تتحمل تكاليفه المالية ـ وهذا التعليم كان يشمل جميع الاولاد الذين كان يتراوح سنهم بين السادسة والعاشرة ، وهؤلاء الصبيان الصغار كانوا يختلفون الى ما نسميه اليوم بالمدارس الابتدائية . والمدرسة عبارة عن كتاب او كما يقال في اللهجة العامية «مسيد» تابع لمسجد او لضريح ولي في المدن والقرى . واما في الارياف عند البوادي فقد كانت توجد بيوتمن شعر يقال لها «الشرية» يقرأ فيها صبيان القبيلة او الفرقة من القبيلة تحت اشراف مؤدب يتولى تسميته شيخ الفرقة .

والمؤدب لم يكن يتقاضى راتبا معينا محدودا بل كان آباء التلاميذ في السلك الابتدائي يؤدون له شهريا اجرة يختلف قدرها باختلاف ثروتهم . والفقير منهم لم يكن يدفع للمؤدب شيئا لان التعليم كان في الجزائر كبقية مختلف البلاد الاسلامية يعطى لوجه الله .

وبالاضافة الى الاجرة كان الآباء يكرمون المؤدب بهدايا ، بمناسبة الاعياد الدينية الشرعية وبمناسبة تقدم الصبي في تعلم القرآن وحفظه اياه ، وكثيرا ما كانت تعطى اياه الهدايا عند ما كان يختم الصبي حفظ حزب من احزاب القرآن او حفظ الربع او النصف من الحزب .

وفيما يلي نذكر على سبيل المثال ما كان يتقاضاه مؤدب في مدينة قسنطينة سنويا ما قبيل الاحتلال :

1 ـ منحة سنوية قدرها بالتقريب 14 فرنك

2 ـ هدايا بمناسبة لكل عيد من الاعياد :
الاحد عشر 5 فرنك

3 ـ منح بمناسبةالدرجات التييجتازها التلميذ 11 فرنك

الجميع 30 فرنك

وبما ان كل مؤدب كان يسهر على ما بين عشرين وثلاثين تلميذا فقد كان يتقاضى فرنكين في اليوم ، اضف اليهما المنح الاستثنائية وما كان يقبضه جزاء عن عمله في المسجد حيث كان كثيرا ما يقوم بوظيفة مؤذن وبوظيفة امام .

واذا ما اعتبرنا ان الهكتوليتر (L'hectolitre) من القمح كان اقصى ما يبلغه من الثمن 8 فرنك والكبش 4 فرنك استخلصنا ان حالة المؤدب المادية كانت مرضية الى حد ما . واما حالته المعنوية فقد كانت حسنة جدا لانه كان موضع التقدير والاحترام من طرف جميع اعضاء الحي او القرية او القبيلة .

هذا ولم يكن المؤدب تحت اية حراسة او مراقبة رسمية . غير ان ارباب العائلات كان لهم الحق ، في حالة ما اذا ارتكب المؤدب زلة او جناية ، في ان يجتمعوا ليقرروا معاقبته . فيوجهون اليه انذارا او يعزلونه ويعوضونه بغيره .

وكثيرا ما كان اهل القبائل في البوادي والارياف يرسلون ابناءهم يتعلمون في المدن وقد كان اقاربهم او اصدقاؤهم يتولون ايواءهم واطعامهم مجانا .

وقد كان يوجد في مدينة قسنطينة سنة 1837: 79 كتاب يختلف اليها 1350 تلميذا وكان في نفس السنة 50 كتابا في تلمسان حيث كان عدد سكانها يتراوح ما بين 12.000 و15.000 نسمة .

أما ما كان يقرأه التلاميذ من المواد ، فقد كان كله دينيا ، ففي خلال السنوات الاربع الاولى كان يحفظ التلميذ عن ظهر قلب كل ما يتصل بالقواعد الدينية كالشهادة وفرائض الوضوء والصلاة وواجبات القيام بجميع شعائر الاسلام والعبادات . وكان في نفس المدة يتعلم الكتابة والقراءة ليتمكن من تلاوة القرآن وحفظه وقراءته عن ظهر قلب الامر الذي يكلفه جهودا جبارة لانه لا يحسن العربية الفصحى ولا يفقه بالتالي لغة القرآن .

وهذا التعليم الابتدائي لم يكن يستفيد منه الا الاولاد دون البنات . اللهم الا ان هناك عائلات عنية كانت تستأجر شيخا مسنا تعهد اليه بتأديب بناتها لان العوائد لم تكن تسمح في الوسط الجزائري للبنات بالاختلاف الى مدارس الابناء كما انها لم تكن تسمح بتخصيص مدارس للبنات .

وعند ما ينهي التلميذ تعلمه في الابتدائي اي عند ما يصبح مهذبا في المسائل الدينية وحافظا للقرآن يمكنه مواصلة دراسته فيما يسمى ان نسميه بالتعليم الثانوي.

وهذا التعليم الثانوى كان ينظم على السواء فى مساجد المدن وفى مساجد البوادى والارياف فى بنايات تخصصها لها الاوقاف وتنفق عليها من دخلها ومن تبرعات بعض الآباء والطلبة الاغنياء .

ب ـ التعليم الثانوى :

والتعليم الثانوى كان مبدئيا مجانا . والمدرسون فيه كان يسميهم الباى باقتراح من الناظر . وبالاضافة الى السكنى التى كان يتمتع بها مجانا فقد كان كل مدرس يتقاضى سنويا راتبا يتراوح بين 100 و200 فرنك يؤخذ من خزينة الاوقاف . وفى معظم الاحيان كان يجمع بين وظيفة المدرس ووظيفتى القاضى والمفتى وزيادة على هذا كله كان المدرس يتمتع ببعض الامتيازات المادية لانه كان يعطى مجانا الماء لوضوئه ، والزيت لايقاد قنديله ليلا ، حتى يتمكن من اعداد دروسه ، وخلال شهر رمضان كانت تهدى اليه الحلويات كل يوم ، وبمناسبة عيد الفطر كان يتسلم البسة جديدة .

اما تلامذة الثانوى فلم يكونوا يؤدون اية اجرة فى مقابل الدروس التى يتلقونها بل كانوا هم المستأجرين بحيث كانوا يتمتعون بالماء والزيت مجانا وكانت تعطى اياهم الحلويات اثناء شهر رمضان . ففى مدينة قسنطينة ، حيث كان يوجد 35 مسجدا و7 مدارس فمن بين السبعمائة تلميذ الموجودين فيها كان 150 منهم يتقاضون من الاحباس اجرة سنوية قدرها 34 فرنك لكل فرد . والثلثان من عدد هؤلاء التلاميذ كانوا ينتمون الى قبائل ناحية المدينة بنى لايوائهم عدد من الزوايا . واما الجزائر العاصمة فقد كان فيها ست زوايا ، ثلاث للطلبة الذين اتوا من غرب القطر ، واثنتان لطلبة الشرق ، والسادسة لمن ليس لهم اسرة من طلبة العاصمة . وفى قسنطينة كان عدد الزوايا 16 . واما تلمسان فعدد زواياها لم يعرف بالتدقيق. ولكن من المسلم به انه كان كثيرا . ففى المدينة نفسها نعلم انه كانت مدرستان احداهما تابعة للجامع الكبير والاخرى هى المدرسة المعروفة بمدرسة «ولد الامام». وفى ناحية المدينة بعين الحوت ، كانت مدرسة مشهورة.

هذا فيما يخص المدن الكبيرة ، واما فى الارياف والقرى عند القبائل ، كانت الزوايا تبنى عادة ازاء ضريح الولى الذى من اجله شيد المسجد تخليدا لذكراه. او، ان لم يكن ضريح ، تكون المدرسة عبارة عن كوخ او عن بيت من الشعر ، وكانت تحبس على هذه المؤسسات اراض للفلاحة يستثمرها فلاحو الناحية .

وكان ما يجنى من فلاحة هذه الاراضى ينفق على المدرسين والتلاميذ وفضلا عن هذا ، كان الجزائريون المجاورون للمؤسسة يدفعون العشر من غلاتهم .

وهذه المدارس كانت تتفاوت اهمية وصيتا . غير اننا لا نعرفها كلها. ولقد ذكر المؤرخون ثلاثين زاوية تقريبا فى تلمسان وناحيتها وعددا هاما غير محدود فى ناحية سيدى بن العباس ومعسكر ومدرسة فى مستغانم ومدارس فى الورسنيس كمدرسة **«ابن المرابط»** التى كان عليها اقبال عظيم من طرف الطلبة . اما المتيجة فنعرف فيها **«زاوية المربوسى»** كما نعرف **«زاوية سيدى خير الدين»** فى مدينة الاربعاء وزاوية **«النميل»** فى بنى موسى وزاوية **«سيدى العيد»** بين بوفاريك والدويرة وزاوية **«سيدى الهبهى»** فى اولاد منديل وزاوية **«البركانى»** بالقرب من مدينة شرشال .

اما اهل بلاد القبائل (البرابر) فقد كانت لهم بعض الزوايا اشتهرت منها اثنتان: زاوية مولاى شقفة بوادى الزهر فيما بين مدينة القل ومدينة جيجل وزاوية ابن على الشريف بالقرب من أقبو .

وعلى حسب الاحصاءات كان عدد التلاميذ الذين يتابعون دروسهم فى الثانوى يتراوح ما بين الفين وثلاثة آلاف فى كل ناحية .

واما مواد التعليم فى الثانوى فهى تنحصر فى العلوم الدينية واللغوية ، وكان المدرس او الشيخ يلقن تلاميذه ثقافة عامة تشتمل على تدريس النحو والصرف والتفسير.

وعند ما ينهى التلميذ دراسته الثانوية ، يتسلم من شيخه شهادة كفاءة تسمى **بالاجازة** يشهد له فيها انه حصل على جميع المعارف التى تدخل فى نطاق تعليمه.

وهكذا يصبح نائل الاجازة **طالبا** بالمعنى العامى الجزائرى اى رجلا مهذبا يحسن قراءة القرآن فى المساجد ويستطيع ان يرشح نفسه لمنصب كاتب (خوجة) او مؤدب فى التعليم الابتدائى الاسلامى .

ت ـ التعليم العالى :

وان كان صاحب الاجازة ذا قريحة ورغبة فى المزيد من العلم واصل دراسته فى التعليم العالى . وفى واقع الامر لم يكن هناك فاصل بين التعليم الثانوى والتعليم العالى وانما كانت قيمة الدروس الملقاة على الطلبة منوطة بقيمة الشيوخ لا من حيث الثقافة فحسب ولكن حتى من حيث مواهبهم فى فن التبليغ . فان كان مستوى تعليمهم عاليا مفيدا ذاعت سمعتهم وطارت شهرتهم

واصبح الذين يستمعون الى دروسهم من الطلبة يستحقون لقب **العلمه** عند ما ينتهون من دراستهم . وعدد طلبة التعليم العالى كان يتراوح ما بين 600 و700 طالب فى كل ناحية .

وشيوخ التعليم العالى كانوا يتقاضون من الاوقاف رواتب فوق رواتب زملائهم من التعليم الثانوى وكانوا فى الاوساط الجزائرية موضوع احترام عظيم من طرف كافة مواطنيهم .

اما مراكز التعليم العالى الشهيرة فى الجزائر فهى :

1 ـ **فى ناحية وهران** ، الجامع الكبير بتلمسان ، وجامع سيدى العريبى وزاوية اسرة الامير عبد القادر.

2 ـ **فى ناحية الجزائر** ، زاوية القليعة وزاوية مليانة وزاوية ابن محيى الدين وزاوية بنى سليمان .

3 ـ **فى ناحية قسنطينة** ، جامع سيدى الاخضر فى المدينة نفسها وزاوية سيدى عقبة وزاوية ابن على الشريف .

وكان التعليم العالى فى الجزائر يشتمل على خمس مواد رئيسية ومواد تكميلية ، اما المواد الرئيسية فهى :

1 ـ النحو والصرف

2 ـ الفقه من حيث هو فرائض دينية ومن حيث هو قواعد اجتماعية وقانونية

3 ـ التفسير

4 ـ الحديث

5 ـ علم الحساب وعلم الفلك

والمواد التكميلية هى : التاريخ والطب . وفى هذا الصدد كثيرا ما كان الشيوخ يشرحون لطلبتهم تاريخ ابن خلدون وروض القرطاس وكتبا من مؤلفات ابن سينا وبعض الكتب فى الطبيعيات .

ومما يجدر التنبيه اليه هو ان جميع الكتب التى كانت تشرح للطلبة الفت فى القرون الوسطى شأن الجزائر فى ذلك اثناء القرن التاسع عشر كشأن جميع البلاد الاسلامية . وذلك لان الجزائريين كغيرهم من المسلمين فى عصر الانحطاط الفكرى والسياسى كانوا يستهدفون من التعليم تهذيب النفوس وتربية الناشئة وتحليتها بالاخلاق الطيبة الطاهرة لا البحث العلمى ، وتوسيع آفاقهم الثقافى . ولنا فى كتاب الامير عبد القادر «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل» مقياس يدلنا على ما كان جزائرى القرن التاسع عشر يعتز به من معارف، وهذه المعارف كانت تكاد تنحصر فى العلوم الدينية واللغوية بالاضافة الى شىء من العلوم الطبية والتاريخية والتنجيم .

3 ـ الحياة الخلقية والفكرية قبل الاحتلال :

ومهما يكن من مستوى العلوم فى الجزائر قبل الاحتلال فقد كان الشعب الجزائرى سواء كان فى الحاضرة ام فى البادية ، يولى عناية بالغة لمسائل التعليم وكانت الاسر تشجع ابناءها على بذل الجهود والمواظبة فى الدراسة ، وقد لاحظ المؤرخون الفرنسيون باستغراب عدد التلاميذ الكبير بالنسبة الى عدد السكان . وقد شهد كل من الجنرال ولسن استرهازى واسماعيل اوربان Welsen Esterhazi et Ismail Urbain ان الجزائريين الذين يحسنون القراءة والكتابة ، كانوا فى ذلك العهد اكثر عددا من الفرنسيين الذين كانوا يقرأون ويكتبون ، ولاحظ الاثنان ان 45 فى المائة من الفرنسيين كانوا اميين حينذاك . وان الجزائر احتلها جنود فرنسيون من طبقة جاهلة تمام الجهل يعنيان بذلك طبقة الفلاحين ، ثم استطرد المؤرخان يقولان : يجب علينا ان نعترف احتراما للحقيقة ان المسلمين فى افريقيا الشمالية رغم انخفاض مستوى العلوم فيها وقلة الكتب كانوا يولون مسائل التربية والتعليم عناية لها قيمتها .

ولهذه الحالة الفكرية والثقافية مؤثرات سياسية عميقة لان التعليم كان من اقوى العناصر تعضيدا للمقومات الخلقية والدينية . وان المدارس كانت تعطى تلاميذها تربية تعزز فى نفوسهم سلطان الاسلام وتمكنهم من تعلم المبادىء الخلقية الفردية والاسروية التى من واجب كل مسلم ان يكون متحليا بها .

فالتعليم الاسلامى الجزائرى كان اذن يكسب الجزائريين حياء فى تصرفاتهم وصراحة مع ليونة فى معاملاتهم وطهارة ودماثة فى اخلاقهم ونزاهة واخلاصا فى علائقهم الاجتماعية كما كان يثير فى نفوسهم حب الفضيلة وتقديرها واحترام الغير من البشر وخشية الله فى جميع احوال حياتهم . وفى الوقت نفسه كان يؤدى الى توطيد عواطف التضامن بين افراد الاسرة الجزائرية كما كان يؤدى الى توحيد الافكار فى مجتمع كثيرا ما كان قد اشتهر باختلافاته السياسية فى الماضى القريب .

هذا وان المعلمين كانوا احرارا حرية كاملة بالنسبة الى الحكومة . وان لم يكونوا يتعاطـــون السياسة ، متجنبين التدخل فى تصرفات الحكام ، فلم تستطـع الحكومة من جهتها استعمالهم ابواقا لمصلحتها ، وآلات لاغراضها السياسية . وعزلهم او نقلهم من مدارسهم كان امرا خطيرا جدا لانهم كانوا يملكون النفوذ الذى يجعلهم يؤثرون معنويا وفكريا فى الآباء ، وكثيرا ما كانت دعايتهم ناجعة ضد من اضطهدهم من اصحاب السلطة .

وقد ذكـــر الاستاذ امريت (Emerit) ان أحـــد الخبراء فى علم الاجتماع كان مستوطنا البليدة سنة 1842 ، كتب عن اخلاق الجزائريين ما ترجمته :

«ان سكان الجزائر فى العموم اقل عصبية من كثير دول جنوب اوربا ، وشعورهم بوجود الله ، شعور حى، متقد، ولكنه فى نفس الوقت اكثر نبلا، واشد سموا مما عساه قد يكون عند غيرهم من الاوربيين المسيحيين ، الذين كثيرا ما اصطدموا خـلال حروب دينية طاحنة شهيرة) وهناك شىء اكثر استحقاقـا لتقديس العرب من الجهاد ألا وهو السلم او العافية.. وحاجة الفقراء الى الحياة اقوى من كل ما يعتريهم من الاهواء . وكثير من الكتاب الفرنسيين ــ حسب امريت ــ Emerit يشهـــدون بان الجـزائريين مسالمـون ، وان الكفاح ضد فرنسا فى اوائل الاحتلال لم يكـن يكتسى صبغة حرب صحيحة ، اى صبغة جهاد ، بل كان حركة صمود فى وجه جيش دولة اجنبية غازية لم يجدوا مبررا لاستسلامهم اليها فى ارض وطنهم ، وعقر دارهم .

لقد استندنا فى كتابة الفقرات السالفة على شهادة كتاب ومؤرخين فرنسيين لنبرز بنزاهة وموضوعية لا تشوبهما شائبة مبلغ الحضارة الروحية والاجتماعية التى وصلت اليها جزائر ما قبل الاحتلال .

وان كانت الحياة الادبية والعلمية فى الجزائر ، حياة متواضعة دون مستوى بعض البلاد الاوربيـة ، فذلك أمر يعود الى العالم الاسلامى بأجمعه ، الذى لم تكن الجزائر الا جزءا منه والذى كغيره ، من الدول الاخرى عرف مراحل مختلفة فى حياته ، عرف الازدهار فى المدنية وعرف كذلك الانحطاط حسب سنة الله فى خلقه .

ولكن ان لم تتبلور الحياة الادبية والعلميـة فى الجزائر خلال القرن التاسع عشر فى كتاب وشعراء وعلماء جزائريين من امثال فكتور هيجو Victor Hugo ورينان (Renan) وكلود برنار Claude Bernard فقد كان الشعب الجزائـرى متمسكـا بأسمى القيـم البشرية وأوفرها نبلا واكثرها تقديره للثقافة والتربية ورجال العلم .

وهذا يفند تفنيدا قاطعا الاساطير التى ما أكثر ما روجها اعداء الجزائر المغرضون الذين وصفوا الشعب الجزائرى بالجهل والامية بل بالوحشية والذين يزعمون ان الاستعمار هو الذى أنقذه بفضل ما اسدى اليه من علوم ومعارف ، من ظلمات الجهل .

ومما يبرز كذلك جليا ظاهرة التمدن والحضارة الراقية عند الجزائريين تعاملهم مع كافة المسلمين كيفما كانت نزعاتهم المذهبية وحتى مع غير المسلمين من «اهل الكتاب» يهودا كانوا ام نصارى ، فالاتراك كانوا ينتمون الى مذهب ابى حنيفة واغلب الجماهير الجزائرية كانوا يتحاكمون فى قضاياهم الى قاض ملكى والمزابيـون كان لهم قضاة أباضيون كـما ان لليهـود حاخاميين. اضف الى هذا ان اليهود كانت لهم مدارسهم الخاصة يسيرونها بانفسهم ويتعلمون فيها العبريـة و«العهد العتيق» كما كانت لهم معابدهم ، وللمسيحيين كنائسهم يقومون فيها احرارا بشعائرهم الدينية .

4 ــ اشراف الشعب بنفسه على المؤسسات الدينيـة والتعليمية :

لقد حاولنا فى الفقرات التى تقدمت اعطاء صورة صادقة عن الحياة الثقافية الاسلامية فى الجزائر المستقلة وعن مكانة اللغة العربية وتعليمها فى المجتمع وحاولنا

---

(1) الحالة الفكرية والمعنوية فى الجزائر سنة 1830م. من مجلة التاريخ الحديث والمعاصر عدد أشهر جوليت الى سبتمبر سنة 1954 .

M. Emerit, L'Etat intellectuel et moral de l'Algerie en 1830 in ; Revue l'Histoire mod. et contemp. juillet sept. 1954, pp. 129 - 211

في نفس الوقت التعريف بالنفسية الجزائرية التي لم تكن تختلف كثيرا عن نفسية سائر المسلمين العرب من البلاد الاخرى .

ثم بينا مستشهدين بآراء علماء فرنسيين ان الشعب الجزائري كان شعبا مهذبا متشبثا بالمبادىء الخلقية انسامية يحسن معظم ابنائه القراءة والكتابة ويكتسب الكثير منه ثقافة عربية اسلامية لها قيمتها .

ويستخلص من هذه الدراسة ان المؤسسات الدينية كالمؤسسات التعليمية يعود الفضل في انشائها وتسييرها والاشراف والسهر عليها الى الشعب وممثليه الدينيين والاجتماعيين لا الى الحكومة التركية التي لم تكن تتدخل في شؤونها الا لاجل مراقبتها من الناحية السياسية .

وهذه الخاصية اكسبت المؤسسات التعليمية حرية عظيمة ونفيسة بالنسبة الى السلطة التركية بحيث جعلتها في غنى عنها لا في الميدان المادي فحسب ولكن حتى في الميدانين الاجتماعي والفني .

5 ـ محاربة الاستعمار للتعليم الوطني العربي :

وهكذا تمكنت المدارس الجزائرية من مواصلة مهمتها بعد الاحتلال الفرنسي وسقوط حكومة الداي التركية سنة 1830 ، سيما وان الفرنسيين كانوا لا يبالون اثناء العشرين سنة الاولى بتعليم الجزائريين حيث كان شغلهم الشاغل الغزو والعمليات العسكرية ، وان اولوا من حين لآخر عنايتهم لهذا التعليم فليقاوموه ويقضوا عليه لانهم كانوا يرون في المدارس الجزائرية ملاجىء للوطنية وحصونا يتأهب فيها المناضلون للجهاد ضدهم فموقفهم ازاءها كان ويظل موقفا سلبيا معاديا .

اضف الى ذلك شره المستعمرين واستعدادهم للاختلاس ، فوجدوا في اموال الاوقاف غنائم سهلة فأكبوا عليها كالوحوش المفترسة يغتصبون وينهبون، سيما وان السلطة العسكرية الفرنسية تواطأت معهم واوصدت ابواب جميع المدارس تاركة المجال خاليا للذين اصبحوا يعيشون بتلك الاموال ويبذرونها ، الامر الذي جعل المعلمين يهجرون الاراضي المحتلة ويلتحقون بالنواحي التي لا زالت مستقلة خاضعة لحكم الامير عبد القادر. نذكر من بين هؤلاء المهاجرين المعلم **قدور بن محمد بن رويلة** الذي غادر العاصمة الجزائرية والتجأ الى مليانة اولا ثم تطوع في صفوف انصار الامير وانضم الى اخوانه يكافح على جوزة الوطن . ولابن رويلة ترجمة لحياة الامير الجزائري لا يستهان بقيمتها الادبية .

ولكن السلطة الفرنسية لم تستطع ان تتمادى طويلا في ضلالها وان تصر على منع التعليم الجزائري ، فعدلت عن موقفها العدائي تحت ضغط الجزائريين واضطرت الى ان تعترف به سنة 1847 .

غير انها في نفس الوقت شنت ضده حرب التحديات والافتزازات والعراقيل الادارية والاقتصادية . ورغم ذلك كله حافظ الشعب الجزائري على مؤسساته الثقافية والدينية شعورا منه ان في بقائها ضمانا لمقوماته الوطنية وشخصيته الاسلامية العربية .

وهكذا اصبح التعليم الجزائري الوطني بين مد وجزر ينمو ويزدهر حيث يكون نفوذ الاستعمار ضعيفا ووطأته خفيفة ويتخلف وينخفض حيث يثقل الحمل وتفتر الطاقة . وعلى هذا الاساس نلاحظ عدد المدارس والتلاميذ ينحدر في شمال الوطن ويتضاعف شيئا ما في الجنوب ولكنه كان بوجه الاجمال في انخفاض مستمر بحيث ان عدد الزوايا (الزوى) سقط حسب الاحصاءات التي وضعتها الحكومة الفرنسية سنة 1871 الى 2.000 وان عدد التلاميذ انحط الى 28.000 تقريبا .

ولكن رغم التخلف العام في التعليم شهدت الجزائر المحتلة انشاء زاوية كبيرة **بالهامل** قرب مدينة **بوسعادة** في جنوب عمالة الجزائر سنة 1863 . وكانت تلك الزاوية تعتبر في مستوى التعليم الثانوي لانها لم تكن تقبل بين الطلبة الراغبين في الالتحاق بها الا حملة القرآن .

ومهما يكن من امر فقد ظلت الزوايا الى سنة 1891 المراكز الوحيدة التي كان يمكن للصبيان الجزائريين اغتراف المعارف منها . هذا ما يستخلص من البحث الذي قامت به لجنة الشيوخ التي اوفدها البرلمان الفرنسي للاطلاع على حالة الجزائريين . وعلى اثر جولتها كتب احد اعضائها وهو مستشار الدولة السيد ليون بيكي (Léon péquet) ما ترجمته : «ان التعليم في الجزائر الآن سنة (1891) قائم تحت اشراف الاهالي انفسهم ، والزاوية حيث يتعلم فيها التلاميذ القرآن وشرحه هي المؤسسة التعليمية الوحيدة في المستعمرة».

6 ـ التعليم الفرنسي من 1883 الى 1901 :

وهكذا يبدو جليا ان الحكومة الفرنسية ، اربعين سنة بعد ان احتلت الجزائر ، لم تعتن بكيفية جدية بتربية الاطفال الجزائريين وتعليمهم ، اللهم الا ما كان من محاولة الامبراطورية الثانية التي كانت تعترف

للجزائر بنوع من الشخصية فى اطار سياسة المملكة العربية الجزائرية والتى ارادت ان تجعل لتعليم اللغة العربية مكانة فى المدارس الرسمية الثلاث «للتعليم الاسلامى العالى» ، وفى المدارس الابتدائية «الفرنسية والعربية» ، اما المدارس الرسمية «للتعليم الاسلامى العالى» وهى ثلاث : الواحدة فى قسنطينة والثانية فى تلمسان والثالثة فى المدية ، (ثم حولت الى الجزائر العاصمة) فقد انشأها مرسوم 30 سبتمبر 1850 لاجل تكوين ـ على حد تعبيره ـ موظفين من الاهالى ليشغلوا ـ وظائف فى الدين وفى القضاء الاسلامى وفى التعليم الاهلى وفى المكاتب العربية .

واما المدارس الابتدائية فقد انشأها مرسوم 14 جولييت سنة 1850 فى النواحى الشمالية اى فى النواحى التى استحكم فيها الاستعمار . ولكن عددها كان قليلا جدا بحيث لم يتجاوز الاربعين مدرسة سنة 1865 ولم يتعد عدد اقسامها قسما صغيرا بكل مدرسة. ولكن على اثر ثورة 1871 اوصدت الحكومة الفرنسية ابواب معظمها بدعوى ان تلامذتها كانوا من بين المتآمرين على النظام الاستعمارى والمساهمين فى الثورة . وما بقى منها بدأ يتقلص شيئا فشيئا حتى تعفى اثره سنة 1883 . وفى واقع الامر ، لم يكن الجزائريون يرتاحون الى التعليم الفرنسى لانهم كانوا يعتبرونه آلة لمحاربة مقوماتهم الوطنية ولان جروحهم لم تكد تأخذ فى الالتحام حتى تصيبهم عاصفة اخرى من الفتك والتنكيل والبطش والتعذيب .

والحقيقة ان اصطدام الشعب بالجالية الفرنسية والجيش حاميها سنة 1871 خلف نتائج تمادى اثرها مدة عشرات السنين على الاقل فى الجزائر . ولا ننسى مختلف انواع القمع التى استعملها الاستعمار ضد الجزائريين بعد ثورة المقرانى . فمن تنقيل القبائل واجلائها عن اراضيها الى نفى الوطنيين الى جحيم كليدونيا الجديدة La Nouvelle Calédonie الى اغتصاب اراضى الفلاحة واختلاس الارزاق ومنع حرية التنقل للجزائريين، ولذا لم تكن حينذاك مشاكل التعليم تتبوأ المكان الاول فى عناية الجزائريين الذين كانوا يفكرون فى مشكل اشد خطرا ، الا وهى تلك المأساة الحيوية التى كان يجتازها الشعب باسره والتى كان يتوقف على حلها مصيره بل وجوده فى ارض وطنه . فلا غرابة اذن ان تنجم عن تلك المأساة عدة من الثورات . الاولى منها ثورة العمرى سنة 1876 ، ثم تلتها ثورة الاوراس سنة 1879 ثم ثورة «بوعمامة» سنة 1881 . ولسنا فى حاجة الى الاشارة الى ما تركته هذه الثورات من الضحايا فى النفوس ومن المرارة والغضب فى القلوب .

ومهما يكن من شىء فلقد كان يبدو اثر هذه المآسى كلها ان الجزائريين فهموا ان العنف لا يؤدى بهم فى تلك الظروف الى التحرر وانه من الاجدر موقتا ان ينتهجوا منهج التعلم وطلب المعرفة ريثما تسمح لهم المقادير بالفرصة التى يكون فيها الحل النهائى .

ومما زاد فى تشجيعهم على سلوك هذا السبيل الجديد بعض البوادر التى كانت قد برهنت على استعداد طائفة من الفرنسيين المسؤولين لتوسيع نطاق التعليم للاطفال الجزائريين . فالبادرة الاولى هى صدور مرسوم 13 فبراير 1883 الذى نص على تطبيق القوانين التى تفرض مجانية التعليم على الفرنسيين وعلى الجزائريين ، بيد ان مرسوم التطبيق الجزائرى لم يشمل البنات .

والبادرة الثانية هى زيارة لجنة الشيوخ للجزائر سنة 1891 للبحث عن الاجراءات التى ينبغى اتخاذها لتحسين حالة الجزائريين ماديا ومعنويا ، فنجم عن هذه الزيارة بعض الارتياح وبعض الامل فى الاوساط الجزائرية . وكان من نتيجة ذلك ان ارتفع عدد التلاميذ الجزائريين المنخرطين فى التعليم الابتدائى الفرنسى من 3.182 سنة 1882 الى 19.885 سنة 1896 ، فكانت اذن خطوة لا باس بها فى حد ذاتها ولكنها كانت متواضعة جدا بعيدة عن الواقع وعن حاجيات الجزائريين. ففى سنة 1889 نلاحظ ان عدد الاطفال الذين يتراوح سنهم ما بين 6 و13 سنة كان 525.389 بينما عدد المسجلين 10.631 فكانت النسبة اذن 2٪.

والواقع ان تحمس الجزائريين للتعليم على اثر صدور مرسوم 1883 سرعان ما اخذ فى الفتور لان الناس اكتشفوا ان الحكومة كانت تضمر سياسة التجهيل فى الوقت الذى كانت تتشدق علنيا فيه بسياستها التحضيرية . وهذا النفاق فى التعليم كان يتبلور فى البرامج المخصصة لمدارس الاهالى والتى كان مستواها دون مستوى برامج ابناء الفرنسيين كما كان يتجسم فى عدم تعليم العربية فلذا كان الجزائريون يتهمون الحكومة الاستعمارية ، بالسعى فى تنصير التلاميذ وفرنستهم .

فلا غرابة اذن الا تزيد بكيفية مستمرة نسبة التلاميذ الجزائريين فى المدارس الفرنسية مع السنين سيما وان الفرنسيين كانوا يضنون على تعليم الاهالى بما يحتاج اليه من الاعتمادات المالية . فالمقارنة بين

التلاميذ الفرنسيين والتلاميذ الجزائريين تعطينا سنة1901 اى فى اوائل هذا القرن الجدول التالى :

	من هم فى سن الدراسة	المسجلون فى المدارس	النسبة المائوية
الجزائريون	6.331.900	245.650	٪3،8
الاوربيون	93.531	78.531	٪ 84

هذا مع ان الجزائريين كانوا يساهمون بنسبة 30٪ من الضرائب فى دخل الخزينة العامة وبنسبة 18٪ فى دخل صناديق العمالات وبنسبة 80٪ فى دخل البلديات .

وهذه السياسة العنصرية المتحيزة لغير المسلمين من الجزائريين ومستوطنى الجزائر عبر عنها ببلاغة الكاتب الفرنسى ن رينق (N de Ring) فى مقالته : «المعمرون الفرنسيون فى الجزائر والمدارس الاهلية»(1) حيث قال : «هناك فكرة راسخة رسوخ الجبال فى عقول المعمرين والناطقين بلسان حالهم ، وهى انه لهم ولليهود الاستفادة مما تأتى به الضرائب من اموال كيفما كان مصدرها . واما الجزائريون المسلمون ، فما عليهم الا الاداء والصبر ».

وما نفور الجزائريين من التعليم كما أسلفنا ذلك الا لان البرامج كانت خالية من تعليم العربية ، وبالرغم من ان مرسوم سنة 1883 المطبق اجبارية التعليم على الجزائريين ومجانيته ينص بضرورة تعليم «الفرنسية والعربية فى المدارس الاهلية» فان السلطات الفرنسية فى الجزائر التى كانت تتواطأ مع المعمرين بذلت كل ما فى وسعها لمنع تعليم العربية بدعوى عدم وجود العدد الكافى من معلمى العربية .

7 ـ المدارس الرسمية الثلاث للتعليم الاسلامى العالى:

وهؤلاء المعلمون هم الذين تخرجـــوا من المدارس الرسمية **للتعليم الاسلامى العالى** التى احدثها مرسوم سنة 1850 بيد ان عددهم كان قليلا جدا بحيث لم يكن كافيا حتى للمناصب الدينية والقضائية الاسلامية . وفيما يلى بعض الارقام تدل على تفاهة قيمة تلك المدارس من حيث الكم :

سنة 1904 كان عدد الناجحين فى شهادة الدروس العليا للمدارس 11 .

سنة 1906 كان عدد الناجحين فى شهادة الدروس العليا للمدارس 12

سنة 1908 كان عدد الناجحين فى شهادة الدروس العليا للمدارس 12

سنة 1911 كان عدد الناجحين فى شهادة الدروس العليا للمدارس 15

واما فيما يخص قيمة تعليمها من حيث المستوى ، فالامر يعود هنا الى شخصية الطلبة والى مواهبهم والى الظروف السياسية التى عاشوا فيها . ولكن فى الاجمال لم يكن تعليم المدارس قيما ، لانه كان قديما فى اسلوبه جامدا فى روحه . واذا جمع التعليم بين القـدم فى الاسلوب والخلو من الروح الوطنية الاسلاميـة صار ينحصر فى شكليات وعبارات خالية من المفاهيم الصحيحة والعواطف المنعشة السامية . فلا هو يكسب الطالب المؤمن علما قديما ولا هو على غرار المناهج العصرية ينمى الفكر ويثير غريزة الاطلاع والاكتشاف ويجعل من الطالب رجلا مسايرا لعصره عالما بتيارات زمانه . نعم لقد تخرج من المدارس مواطنون تجلت مقدرتهـم وظهر علمهم ولكنهم اقلية مدينة ببضاعتها لجهودها الخاصة لا لتكوينها المدرسى .

ومهما يكن من شىء فلم يكن يتخرج من المدارس العدد الكافى لنشر العربية فى الابتدائى وللقيـــام بوظائف الدين والقضاء فى آن واحد .

8 ـ تقهقر التعليم الجزائرى القديم :

اما التعليم التقليدى الاسلامى فقد ظل منحصرا فى الكتاتيب القرآنية وفى المساجد الكبيرة ، ولكن عدد

1) N. de Ring : Les Colons français en Algérie et les écoles indigènes

الكتاتيب اخذ ينخفض شيئا فشيئا نتيجة اغتصاب اموال الاوقاف من طرف الحكومة الفرنسية ومن جراء العراقيل التى تنوعت فى اختلاقها فى سبيله كما اخذت تنخفض قيمة المعلمين العلمية والمعنوية . وبالاجمال يسعنا ان نقول : ان تعليم اللغة العربية والموادالاسلامية صار يتقلص قليلا فليلا فى سائر البلاد واصبحتالامية ضاربة اطنابها فى كل بقعة من الوطن الجزائرى .

ويجدر بنا ان نتذكر اننا بصدد دراسة اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين اى فى العهد الذى بلغت فيه سلطة الجالية الفرنسية فى الجزائر اقصاها والذى وجد الشعب الجزائرى نفسه فيه محروما من سائر وسائل الكفاح المادية ، لان الاستعمار ، بعد ان عرضه لمختلف انواع الاضطهاد ، اغتصب منه كل ما بقى له من الرزق . فاصبحت الصدمة الاقتصادية التى اصابته اشد وطأة عليه من الصدمة العسكرية . اضف الى ذلك ان طبقة الاشراف المعروفين بالمرابطين فى لهجة الجزائر العامية والذين كانوا يعتبرون رموزا للصمود ضد العدو المحتل والذين جعلوا من زواياهم ملاجىء لرجال الجهاد المادى والمعنوى اصبحوا فيما بينهم يتنازعون ، وعلى اكتساب مرضاة السيد المستعمر يتنافسون . وذلك لان سياسة التفرقة الاستعمارية التى كانت تخبط رئيس زاوية بخصمه احطت من معنوية الجميع ، الامر الذى جعلهم مع الاستعمار يتواطئون، واليه يتملقون ، املا فى ان يترك لهم المجال خاليا لنشر دعايتهم وجمع الاموال من الشعب .

واما رجال الدين من مفتين وائمة وقراء القرآن (الحزابين) ورجال القضاء من عدول «وباش عدول» وقضاة سواء كانوا قد تخرجوا من المدارس الرسمية للتعليم الاسلامى أم لا فقد كانت ـ اللهم الا من شذ منهم ونذر ـ معنويتهم احط وانقيادهم لاوامر الاستعمار اكمل .

كل ذلك ادى الى ركود لدى رجال السياسة وجمود عند رجال العلم والتعليم وازمة عامة فى الميدانين الاقتصادى والمعنوى .

غير ان الشعب الجزائرى ، رغم كل ما كان يكابده من عذاب ويعانيه من اضطهاد ويتحسر منه من خيبة ناجمة عن فشل بل عن خيانة من كان فيهم واثقا ، وعلى وعيهم مستندا . ظل فى وجه الاستعمار صامدا، ولمبادئه ووطنه وافيا ، ورغم جهود الاستعمار وحيله لفصل الجزائر عن العالم وعزله عن البلاد الاسلامية فقد كان يتسرب اليه خبر ما كان الاسلام يهتز به من حوادث وكوارث . فاحتلال فرنسا لتونس سنة 1881، واحتلال الانجليز لمصر اثر ثورة عربى باشا سنة 1882 كان لهما اثر سيء فى الجزائر فتألمت عليهما تألما على فشل ثورة «بوعمامة» فى شهر ابريل من سنة 1881.

9 ـ حيوية الشعب الجزائرى واعتصامه بمبادئه الثقافية والمعنوية :

ان الشعب الجزائرى كان يشعر فى سريرة نفسه أن مصيره مرتبط بتطور العالم عامة وبمصير العالم العربى خاصة . فلذا كان متتبعا للاحداث متطلعا الى كل ما من شأنه ان يبعث الامل فى قلبه . وكانت صفوة من الجزائريين قليلة العدد عظيمة التأثير تقرأ بمواظبة «المنار» وهى مجلة اصلاحية أسست سنة 1898 واكتسبت شهرة قليلة المثيل فى العالم الاسلامى باسره بفضل عنايتها بكل ما كان يمت الى صالح الشعوب العربية من قريب او من بعيد ، وكانت بالطبع تولى شؤون افريقيا الشمالية اهتماما فائقا وتنشر على صفحاتها مقالات مركزة لا تتحرج فيها عن انتقاد سياسة فرنسا فى الجزائر .

وبالاضافة الى تأثير الصحافة الشرقية فى نفوس الجزائريين كانت زيارات زعماء العروبة للوطن تخلق جوا معنويا مفعما بالحماس والامل شأن زيارة مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى المصرى للجزائر سنة 1902، وشأن كذلك زيارة العاصمة الجزائرية من طرف الشيخ الاصلاحى الشهير الامام محمد عبده سنة 1903 .

وما دمنا نذكر عناصر توعية الجماهير الشعبية فى الجزائر فلا ينبغى ان ننسى الثورة التى قامت بها تركيا الفتاة سنة 1908 والتى كان لها صدى بعيد فى اوساط الشبيبة الجزائرية ، كما لا يجب غض الطرف عن الاكتسابات التى حظى بها العمال الجزائريون الذين هاجروا الى فرنسا بفضل احتكاكهم بالحركة العمالية الفرنسية وعن الدعاية التى تولتها حركة السلفيين بواسطة دعاتها وبواسطة الحجاج والصحافة العربية كمجلة المنار الآنفة الذكر .

فلا الشعب الجزائرى تطورت نفسيته على ممر الايام وصار يرتاح لوجود الجالية الفرنسية فى بلاده ويطمئن لها ولا هى كانت تثق فيه وتلتمس صداقته ومودته، فالفرنسيون ظلوا يرون فى الجزائريين أعداء لا بد ، طال الزمان ام قصر ، من اخضاعهم بكيفية تقضى على آمالهم التحررية قضاء نهائيا يمكنهم بالتمتع بطيب

العيش فى ارض احتكروا ارزاقها لانفسهم وسخروا سكانها لخدمتهم ، والجزائريون ما فتئوا يفكرون فى يوم الحريـــة والخلاص . فكانت بين الجانبين حرب بسيكولوجية مستمرة تكتسى الوانا واشكالا . فتارة تنفجر وتتحول الى اصطدام دموى عنيف، وتارة تقتصر على ميدان الثقافة والدين والعلم وتظهر فى مظهر هادىء سلمى .

وكان الجو لا يكاد يصحو قليلا حتى تحدث حادثـة تعكر حالة العلائق بينهم من جديد. فالنفوس تثور ، والضغائن تتضاعف والعداوة تشتد . ذلك ما وقـــع مثـلا على اثـر ثـورة بوعمامـــة سنة 1881 وما حدث بعد احتلال ناحية المزاب فى جنوب العمالة الجزائرية سنة 1882 واحتلال عين صالح سنة 1900 وفرض الحماية على المغرب الاقصى سنة 1912 .

ومما يدل على البون الشاسع بين الجالية الفرنسية والشعب الجزائرى ما كتبه موريس بولار سنة 1910 فى كتابه «تعليم الاهالى فى الجزائر» (1) :

«فمن بين الاربعة ملايين والنصف كم ادمجنا فى حضارتنا خلال تسعين سنة من جزائرى مسلم . لقد نكون بالغنا اذا قدرناهم بالمائة فرد وهـــؤلاء الجزائريون الذين استعاروا فى الظاهر عوائدنا واسلوب عيشنا وصاروا موظفين واطباء ومحامين لم يندمجـــوا فى فرنسا الا سطحيا لانهم لم يكتسبوا نفسية فرنسية».

وهكذا اصبحت العلائق بين الجزائريين والفرنسيين تتأزم من خطر الى اخطر حتى حولت تدريجيا نوع الكفاح ونقلته من الميدان الاجتماعى الذى كان قد انتهى اليه الى الميدان السياسى .

10 ــ خيبة الشعب الجزائرى بعد الحرب العالمية الاولى:

ومما زاد الحالة تفاقما ، الخيبة التى اعترت الشعب الجزائرى اثر حرب 1914 ــ 1918 والتى كان شارك فيها مشاركة فعالة بجانب فرنسا وتحمل اثناءها اجسم التضحيات ، املا منه فى ان تتحقق بعد انتصار الحلفاء المتوقع مطامحه وآماله ، ولما اكتشف الجزائريون انه لم يكن فى نية فرنسا الوفاء بعهودها ، شمل الشعب بأسره ، استياء عظيم سيما وانه كان ينتظر من الحكومة الفرنسية ان توفى على الاقل بوعودها فى الميدانين الاجتماعى والثقافى لان التجربة اصبحت تبرز لديهم جليا ما للثقافة العصرية العلمية والتقنية من قيمة ، راقية، اذ لا بد من الالمام بها بصفتها اداة خليقة بتنوير عقول رجال القرن العشرين وتربيتهم، وبصفتها سلاحا حديثا ضروريا للكفاح الوطنى التحررى .

ولم تكن رغبتهم فى تعلم الفرنسية تتنافى مع رغبتهم فى تعلم لغتهم الوطنية . غير ان فكرة الازدواجية فيما يخص معرفة اللغات امست فى جزائر اوائل القـرن العشرين امرا يشعر بضرورته كل جزائرى واع . ولكن الفرنسيين بعد نشوة انتصارهم فى الحرب العظمى ، اصبحوا يعتقدون ان افريقيا الشمالية قد ابيدت نهائيا من الخريطة الجغرافية باعتبارها بلادا عربية اسلامية، وان فرنسا لا محالة ناجحة فيما فشلت فيه قبلها روما القديمة من ادماج وتنصير جميع المغاربة من سوس الى قابس .

ففى الوقت الذى صار فيه الجزائريون يفكرون من جديد فى الوسائل التى بفضلها يتحررون من الاستبداد الاستعمارى ا ىفى الوقت الذى ظهرت فيه اسطورة **الجزائر الفرنسية** على وجهها الحقيقى ضاعف فيـــه الفرنسيون مجهوداتهم ، ليبرهنوا للعالم ان سياستهم الادماجية قد نجحت .

فمن الاحتفالات التى نظموها فى الجزائر سنة 1930، بمناسبة الذكرى المائوية للاحتلال ، الى عقد مؤتمر الاساقفة المسيحى بقرطاج فى تونس الى الظهير البربرى فى المغرب ، كل هذه المظاهرات كانت ترمى الى اعطاء الحجة القاطعة ، ان السيادة الفرنسية قد فرضت بصفة دائمة مؤبـدة عـلى افريقيا الشمالية ، وان مصير الجزائريين والتونسيين والمغاربـــة ، امسى موصولا لا بمصير فرنسا فحسب ، ولكن حتى بمصير المدنية المسيحية اللاتينية .

بيد ان الجزائريين كغيرهم من المغاربة فى المغرب العربى الكبير رأوا فى تلك المظاهرات تعديا على كرامتهم وعلى شخصيتهم ، واصبحوا يبحثون عن رد الفعل الذى بفضله يصونون مقوماتهم وكيانهم المعنوى ، ويبنون مستقبلهم ومستقبل ابنائهم .

11 ــ نشأة جمعية العلماء ــ تطورها ومبادئها :

ففى ذلك الجو السياسى نشأت فكرة حركة العلماء الجزائريين وتنظيم التعليم العربى الحر العصرى قصد تلافى نقصان التعليم الرسمى الفرنسى ونشر اللغة

---

1) Maurice Poulard, L'enseignement pour les Indigènes d'Algérie, alger, 1910

الوطنية فى البلاد وتربية الناشئة على أسس اسلامية.

لقد أسس جمعية العلماء الجزائريين فى شهر ماى من سنة 1931 ثلاثة رجال يختلفون فى طباعهم وتكوينهم ويتحدون فى اهدافهم ومبادئهم .

فالاول من مدينة قسنطينة ، رجل ذو ثقافة اسلامية متينة عرف بدماثة اخلاقه ورباطة جاشه وميلـــه الى التفكير الطويل فى الفلسفة وعلم الاجتماع ، هو الشيخ عبـــد الحميد بن باديس الذى قام بالدور الاول فى تأسيس الجمعية وتسييرها .

وثانيهم الشيخ البشير الابراهيمى اشتهر ببراعة قلمه وبلاغة لسانه وصبره ومواظبته على العمل رغـم صحته الضعيفة ووسائله الضئيلة .

والثالث هو الشيخ الطيب العقبى امتاز خاصـــة بفصاحة لسانه .

وبالرغم من ان جمعية العلماء كانت تنتمى من حيث مبادئها الى الحركة الاصلاحية الاسلامية العصريـــة المعروفة بالسلفية ، فأهدافها كانت بطبيعة الحال تقتصر اولا وقبل كل شىء على المسائل الجزائرية الصرفة . وان اكـــرهتهـا الظـروف عـلى ان تتحاشى رسميا الخوض فى السياسة فهى كانت فى طليعة الحركات الوطنية المكافحة فى سبيل التحرر . وعلى اى حـــال، فجمعية العلماء كانت من اشد المنظمات الجزائرية خطرا على الاستعمار الادماجى ومن انجع الوسائل فى الدفاع عن المقومات الاسلامية الوطنية .

ففى الميدان السياسى كانت جمعيـة العلمـاء تبذل منتهى الجهود لمقاومة سياسة الادماج ووقاية الجماهير الشعبية من شرها كما انها كانت تناضل فى سبيل تربية الشعب وتنظيمه كى يقوم لمكافحة الاستعمـــار وتحرير البلاد وضم الجزائر الى سائر البلاد العربية . وتتلخص مبادئها فى الشعار التالى المنسوب الى الشيخ ابن باديس وهو : الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا .

ونتيجة عن ذلك فقد كانت جمعية العلماء تعارض رسميا مرسوم 7 مارس 1944 القاضى بجعل الجزائريين فرنسيين .

اما فى الميدان الاصلاحى فحركتها كانت ترمى الى تطهير الاسلام الجزائرى من البدع المخالفة للدين الامر الذى حداها الى مقاومة فكرة الوساطة او الشفاعة التى كان بعض المرابطين واصحاب الطرق الدينية الصوفية يتجرون بها ويرتزقون بفضلها ، كما حداها الى تحريم عبادة الاولياء الذين اصبحت ذريتهم تتعامل مع الاستعمار لاستغلال الشعب .

لقد يبدو من البديهى ان برنامجا مثل هذا لم يكن من السهل تطبيقه فى الجو الجزائـــرى فى السنوات التى تقدمت الحرب العالمية الثانية لان كلا من الاستعمار الفرنسى وجماعة رجال الدين الرسميين وجماعـــة المرابطين اكتشفوا الخطر الذى اصبح يهددهم جميعا من طرف العلماء ، فالقوات الثلاث تحالفت للقضاء عـلى حركة جمعية العلماء قبل ان تقضى هى عليها .

ولكن الشعب بفضل وعيه الحاد احس سريعا ان حلفاءه المخلصين هم العلماء فانضم اليهم يؤيدهـــم ويناصرهـــم فقامت فى الميادين الاداريـة والدينيـة والاجتماعية والسياسية حرب شعواء بين الجانبين .

ومما زاد حركة جمعية العلماء قوة وانتشارا فى البلاد حالة المثقفين بالعربية الذين لم تدع لهم **«الجزائـــر الفرنسية»** مجالا لاكتساب رزقهم فى اطاراتها بكيفية شريفة ، فبطبيعة الحال لم يجد هؤلاء الرجال بدا من ان يلتحقوا بصفوف العلماء وينشروا دعاياتهـم فى مختلف الاوساط الوطنية ، وهكذا كان من حسن حظ الجزائر ان يتجند لخدمة قضية الحق والعدالة والحرية ابناء لها يحسنون لغتها ويلمون بثقافة حضارتها .

اضف الى ذلك ان البون كان شاسعا جدا بين رجال جمعية العلماء ومستواهـم الخلقى والعلمى ومستوى اضدادهم من اصحاب (الزوى) ورجال الدين الرسميين. فالحكومة الفرنسية فى الجزائر بصفتها حكومة اجنبية طاغية مستغلة لم تكن تثق الا فيمن خفت بضاعتهـم الثقافية ولانت طبائعهم الاخلاقية وانحطت قيمتهـم المعنوية ، فلا غرابة اذا انخفض مـــع توالى السنين مستوى مناصريها من اهل الدين .

وفى هذا الصدد نستشهد ببعض الفقرات من مقال كان قد كتبه مدير الشؤون الاسلامية قديما السيـــد اوجيستان بيرك A. Berque فى «مجلة البحر المتوسط» عدد 33 الجزء II من شهر جولييت من سنة 1951 تحت عنوان «صيادو الآلهة ، مرابطون وعلماء» .

يكتب الاستاذ بيرك (والد جاك بيرك العالم الاجتماعى والمستشرق الشهير) ما ترجمته :

«ومشكل العلماء لم يكن يكتسى تلك الحدود لولا تدخل فرنسا فى شؤون رجال الدين الموظفين من طرف الحكومة . ولا زلنا نتذكر أئمة سنة 1900 الذين يقرأون

تصوف الغزالى ويستطيعون ان يؤولوا تأويلا صحيحا البخارى ويتقنون فهمه كما كانوا يفهمون عن حقيقته فلسفة ما وراء الطبيعة لابن رشد. نعم ان علمهم فى الدين والفقه كان مركزا مؤثرا دقيقا جلابا . وفى طليعة هؤلاء العلماء كان السيد عبد الحليم بن سماية .

* * *

ان خطا سياستنا الدينية فى الجزائر اثناء العشرين سنة الاخيرة هو قبول بعض الموظفين الذين كانوا يتمازون بجهلهم وشرههم ورغبتهم فى الرشوة . وخصلتهم الوحيدة لدى الحكومة كانت تنجسم فى انقيادهم الاعمى اليها» .

لقد يسهل علينا الآن ان نفهم لماذا نجح العلماء فى محاولاتهم . ولقد شوهد مرة مفت يستفتى الطيب العقبى عن خلاف فقهى سهل كان ائمة الاسلام قد سووه اكثر من مائة مرة غير ان ذلك المفتى كان دليلا يعمل لمصلحة الشرطة . وقد سمع ايضا مرة موظف دينى يرتكب ابشع الاخطاء اثناء اعمال مؤتمر مغربى ويثير هكذا ضحكا لا نهاية له من لدن زملائه المغاربة والتونسيين غير ان ذلك الموظف كان عميلا تستخدمه الحكومة لدعايتها الانتخابية».

وهكذا يظهر ان جميع الشروط كانت متوفرة لدى جمعية العلماء الجزائريين لتضمن لها النجاح السريع فمن جو عالمى واسلامى مناسب الى اصرار فرنسا على مواصلة سياستها التجهيلية الى قصور انصارها من الموظفين الدينيين وانحطاط مستواهم المعنوى والخلقى.

اضف الى ذلك ان مسيرى جمعية العلماء سواء المشايخ الثلاثة الذين اسسوها ، ام المسؤولون الآخرون مثل السيد احمد توفيق المدنى الذى تولى فيما بعد كتابة الجمعية العامة والذى امتاز بنشاطه المستمر الناجح والشيخ المبارك الميلى الذى كان يتسم بمواهب علمية صحيحة او الشيخ العربى التبسى الذى اشتهر بتحمسه وتعصبه لمبادىء الجمعية وغيرهم من اعضاء الجمعية العاملين المخلصين الآخرين الذين لا يسعنا المجال لذكر اسمائهم جميعا كانوا كلهم متفانين الى درجة التضحية بالحياة فى سبيل غايتهم .

فبفضل مجهودات هؤلاء الرجال عرفت الجزائر قبيل الحرب العالمية الثانية نشاطا عظيما وحيوية بالغة فى الميدانين الثقافى والسياسى ، ورغم مختلف العراقيل التى كانت تعترض سبيلهم لم يعرفوا تهاونا فى العمل ، ولا خمودا فى الهمة ، ولا فتورا فى العزيمة . الامر الذى اكسبهم ثقة الشعب وتاييده .

12 ـ التعليم الوطنى الحر ـ حركة العلماء التعليمية:

فتمكنوا هكذا من تأسيس عدة مدارس حرة صار التلاميذ يدرسون فيها ، بالاضافة الى المواد اللغوية والدينية ، الرياضيات والطبيعيات والتاريخ والجغرافيا. والكل كان يلقن بالعربية رغم عدم تخصص اساتذتها.

غير ان الحرب 1939 ـ 1945 جاءت واوقفت نشاط الجمعية التعليمى كما اوقفت دعايتها السياسية . وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى استأنفت جمعية العلماء من جديد عملها فى جو اكثر حماسا وظروف اوفر مناسبة وذلك لان وعى الشعب الجزائرى بلغ أقصاه ولان استعداده لخوض الكفاح وتحمل اثقل التضحيات وصل منتهاه .

فتصدى المسؤولون فى سائر المدن الجزائرية لجمع تبرعات الشعب وبناء المدارس سيما وانهم وجدوا فى البند 57 من قانون 30 سبتمبر 1947 مبررا شرعيا لنشر التعليم العربى . وذلك البند ينص بان «اللغة العربية اصبحت احدى اللغات الرسمية للوحدة الفرنسية وان تنظيم تعليمها فى مختلف الاطوار سوف يشرع فيه».

وما هى الا سنوات قليلة حتى شيدت مدارس عربية حرة فى اكبر المدن الجزائرية وفى فاتح نوفمبر 1954 اى فى اليوم الذى اندلعت فيه الثورة الجزائرية بلغ عدد هذه المدارس 150 معظمها يشتمل على اكثر من خمسة اقسام كما بلغ عدد التلاميذ الذين كانوا يختلفون اليها حوالى 45.000 تلميذا .

نذكر من بين هذه المدارس :

- معهد ابن باديس فى قسنطينة .
- مدرسة دار الفلاح بوهران .
- مدرسة دار الحديث بتلمسان .
- مدرسة حى بلكور فى العاصمة .

ان هذه المدارس من اكبر معاهد جمعية العلماء ، لانها تشمل جميع الاقسام الابتدائية ، وعلى قسم او قسمين او ثلاثة اقسام من الثانوى . وبرامج هذه الاقسام الثانوية كانت منسجمة مع برامج جامعة الزيتونة بتونس والى حد ما ، مع جامعة القرويين بفاس ، بحيث كان فى وسع المتخرجين منها ان يواصلوا

ـ دراستهم الاسلامية العالية فى تونس او المغرب . وفى واقع الامر كان الطلبة الجزائريون القاطنـــون بعمالة قسنطينة وعمالة الجزائر يتوجهون الى تونس بينما كان طلبة عمالة وهران وحتى طلبة ناحية الاصنام وتنس يقصدون جامعة القرويين بفاس . وعدد طلبة تونس كان يبلغ حوالى 600 طالب سنة 1954 بينما كان عدد طلبة فاس يناهز 300 طالب فى نفس السنة .

ومن بين متخرجى المدارس الثانوية الحرة كانت فئة تقدر بالعشرات تتجه الى الشرق العربى (مصر سوريا ـ بغداد ـ الكويت) لمواصلة دراستهم العالية

هذا وان مدارس جمعية العلماء لم يكن ينحصر وجودها فى المدن الكبرى بل كانت منتشرة فى سائر المدن المتوسطة كبجاية وجيجل وباتنة وبسكرة وعنابة وتنس والاصنام وبوسعادة والاغواط ومستغنم وبن العباس وتيارت . وفى مدينة كبيرة واحدة مثل الجزائر كانت توجد عـــدة مدارس حرة مبعثرة فى مختلف الاحياء مدرسة منها فى صلنبى (Salembier واخرى فى ساتوجين (St Eugène) واخرى فى الرويسو Ruisseau واخرى فى بلكـور (Belcourt) الخ .

ومهما يكن من امر ورغم مجهودات مسيرى الجمعية وتضحيات الشعب لم تكـن المدارس الحرة كافيـــة لحاجيات البلاد . واذا تذكرنا ان عدد الاطفال فى سن التعليم كان يقرب من المليونين سنة 1954 فى حين ان عدد الابناء الذين وجدوا مقاعد فى مدارس الحكومة الفرنسية لم يتجاوز 300.000 تلميذ ادركنا الى اى حد بعيد وصلت اليه المأساة الجزائرية فى الميـــدان التربوى لان نسبة التلاميذ الذين كانوا يتعلمون لم تكن تبلغ تماما ذلك العدد .

قلة عدد الجزائريين الذين يقرأون ـ طغيان الفرنسية على العربية :

والمقارنة بين عدد التلاميذ الذين كانوا يتعلمـون الفرنسية (300.000 تقريبا) ، والتلاميذ الذين كانوا يقرأون العربية (50.000) تبين بكيفية واضحة طغيان الفرنسية على العربية سيما وان حظ العربية فىالتعليم الفرنسى يكاد يكون عديم الوجود .

لقد سبق لنا ان اشرنا الى خلو البرامج فىالابتدائى الى سنة 1957 من المواد العربية ، اما التعليم الفرنسى الثانوى ـ الذى كان عدد تلاميذه الجزائريين لا يبلغ سنة 1954 ، 4.000 تلميذ فمكانة اللغة العربية فيه كانت حقيرة جدا ، وان كانت العربية فى الثانـــوى تعتبر لغة اجنبية كالانجليزية مثلا ، ففى حقيقة الامر كان مقامها المعنوى دون سائر المواد وسائر اللغات باعتبارها لغة الضعيف ولغة الخصم وحصتها الاسبوعية كانت تعادل حصة اللغات الاجنبية الحية الاخرى ، ولكن طريق تعليمها كانت عقيمة جدا لان ـ الاساتذة الذين كان يعهد اليهم بتلقينها كانوا قاصرين من حيث التكوين والمستوى الثقافى العربى ، ومقصرين ، لان الادارة كانت تتغاضى عنهم وعن تهاونهم . ومهما يكن من امر فتعليم العربية فى السلك الثانوى وفى السلك العالى الرسميين كان داخلا فى نطاق سياسة اهانة الجزائريين واضطهادهم واحتقار كل ما يمت اليهم بصلة .

14 ـ طريق الفرنسيين لتعليم اللغة العربيـــة فى الثانوى والعالى :

لذا كان الاساتذة يقضون معظم اوقاتهم فى تسلية تلاميذهم بحكايات مضحكة مثل قصص جحا ، وكان التلاميذ يغتنمون وجودهم فى قسم العربية للاستراحة او لمراجعة دروسهم او اتمام تمارينهم فيما يعتبرونه من المواد الرئيسية .

واذا ما حاول الاستاذ من حين لآخر ان يعمل بجد، اتخذ اللغة الفرنسية أداة للتبليغ شأنه فى ذلك شأن اساتذة اللغات القديمة الميتة كاللاتينية مثلا اواليونانية القديمة .

وليس من الغريب فى شىء هذا السلوك من طرف اساتذة العربية فى الثانوى وكلهم بل ومعظمهم تخرج من الجامعات الفرنسية حيث تدرس العربية كلغـــة اجنبية ميتة .

وفى حقيقة الامر كان الاخصائيون فى مستـــوى التعليم العالى الرسمى يعتبرون اللغة العربية كاحدى الوسائل التى تمكنهم من بلوغ اهدافهم العلميـــة . فدراساتهم وبحوثهم تكاد كلها ترمى الى اماطة القناع عن ماضى العرب والشعوب الاسلامية فيما يتعلـــق بالتاريخ وعلم الاجتماع وتاريخ الآداب وفقه اللغـــة والفلسفة وعلم الفلك الى غير ذلك . فافكارهم كلها متجهة نحو الماضى وبوجه خاص نحو القرون الوسطى التى ازدهرت فيها المدنية العربية .

وحيث انهم كانوا يحتقرون حاضر العـــرب ولا يؤمنون بمستقبلهم كان تعليمهم للمواد العربية يدعو

الى الرجوع الى الماضى والتأمل فيه بصفته ميدانا يستحق ان يكتشف ويستغل . واما ان يدرسوا العربية بصفتها عنصرا خليقا بأن يساهم فى انعاش الحاضر وتهيئة المستقبل وفتح الآفاق العلمية والادبية امام الناشئة المتعلمة فذاك ما لا يخالج فكر الكثيرين منهم .

وخلاصة القول ان تعليم العربية فى المعاهد الرسمية الفرنسية لم يكن يستجيب لا لحاجيات العصر والبلاد ولا لمطامح الشعب الجزائرى .

فكان ناقصا قليلا من حيث الاسلوب غير مناسب لروح العصر وغير كفيل بتهيئة المستقبل ، ولئن كان جديرا باطلاع الطلبة على قواعد البحث العلمى حسب الطرق العصرية وتثقيفهم ثقافة فرنسية لا يستهان بها ، فهو عاجز عن تعليمهم اللغة العربيه بصفتها لغة حية ، لغة التخاطب والكتابة .

فالمدارس الاسلامية الرسمية الثلاث كان الغرض منها كما اسلفنا ذلك ، تكوين موظفين من الاهالى ، تستعملهم الادارة الاستعمارية كأداة فى معاملاتها مع الشعب الجزائرى فى المسائل التى لا تتوقف عليها مصالح الاستعمار الكبرى فأصبح تعليمها غير مطابق لمقتضيات البلاد فى النصف الاول من القرن الحاضر . فلذا كان يثير الانتقادات العنيفة لا من طرف النواب الجزائريين فحسب ولكن حتى من طرف طلبة المدارس انفسهم الذين كانوا يطالبون بتغيير وضعية تلك المدارس الرسمية وتعديل برامجها وجعلها تهيء الى الباكالوريا .

15 ـ تحويل المدارس الرسمية الثلاث الى ثانويات «فرنسية اسلامية» :

فلم تجد هذه المطالب اذنا صاغية من لدن الحكومة الفرنسية الا سنة 1951 . ففى 10 جولييت 1951 اى مائة سنة بعد انشائها ظهر مرسوم يحول المدارس الرسمية الثلاث الى ثانويات «فرنسية اسلامية» تهيء التلاميذ الى باكالوريا التعليم الثانوى . وبالاضافة الى هذه المدارس المخصصة للابناء أنشئت ثانوية «فرنسية اسلامية» للبنات .

ومن الملاحظين من يعتبر هذا المرسوم كخطوة اولى فى سبيل لإصلاح التعليم الجزائرى الرسمى لانه يهدف الى التوفيق بين التعليم العربى التقليدى والتعليم الفرنسى العصرى . فهو بعبارة اوضح اول محاولة ترمى الى وضع ازدواجية اللغات على أسس موضوعية مطابقة شيئا ما للواقع الجزائرى حينذاك .

والفضل فى هذا الاصلاح يعود بالطبع الى الشعب الجزائرى الذى بتأييده لجمعية العلماء وانضمامه حول مبادئها أثار خوف المستعمرين ، فكان رد الفعل من طرفهم المشروع فى توسيع التعليم «الفرنسى الاسلامى» على النمط التونسى والنمط المغربى .

وهذا التعليم «الفرنسى الاسلامى» رغم ما ادخل عليه من تحسينات لم يكن مستجيبا استجابة كاملة لحاجيات البلاد من حيث الكم ولا لمطامح الشعب من حيث المبدأ وذلك لان برامجه كانت خالية من الروح الوطنية التى تحث التلاميذ على التمسك بقيم الوطن وتقاليده النبيلة وتفتح امامهم آفاق المستقبل الباسم.

ومهما يكن من امر فلم يكد يدخل هذا النظام الجديد فى طور التطبيق حتى اندلعت ثورة فاتح نوفمبر سنة 1954 المباركة فقد يعسر علينا اذن استخلاص النتائج الصحيحة من تجربة لم تأت بكيفية واضحة اكلها . بيد اننا نرى على ضوء التجارب الاخرى التى وقعت فى سوريا ولبنان وتونس والمغرب ـ اى فى البلاد العربية التى تأثرت بالثقافة الفرنسية ـ فى التعليم «الفرنسى الاسلامى» نواة التعليم الجزائرى فى فجر عهد الجزائر المستقلة بشرط ان تلحق به التعديلات اللازمة فيما يخص البرامج وفيما يخص الاسلوب والروح وبشرط ان يعوض حينما تسمح الظروف بذلك وفى اقرب وقت ممكن بتعليم جزائرى صرف لا تشغل فيه اللغة الفرنسية الا حصتها المعقولة بصفتها لغة اجنبية لا غير .

16 ـ التعريب ومشاكله :

وهذا ما يؤدينا الى الكلام عن التعريب ومشاكله فى هذه المرحلة من حياة الجزائر الثقافية .

ولعل القارىء قد لاحظ وهو يطالع الفقرات السابقة من هذا البحث ان الشعب الجزائرى ناضل طيلة نيف ومائة سنة فى سبيل تحريره السياسى وتحريره الثقافى فى آن واحد وا نكلا من الكفاحين كان متصلا بالآخر اتصالا وثيقا ، اذ لا سبيل بطبيعة الحال ان يتحرر الشعب سياسيا ويبقى فاقدا لاهم عنصر واقدسه من كيانه الوطنى ألا وهو ثقافته الخاصة ، وبالتالى الاداة المعبرة عن تلك الثقافة اعنى بها اللغة العربية ، لغة الآباء والاجداد .

وثورتنا الحالية تتسم هي ايضا بهذه الصبغة ، حيث انها تهدف الى استعادة تراثنا الفكرى وخيرات البلاد المادية ، ولا نرى لابراز هذه الصبغة احسن وسيلة من ذكر الفقرة الرئيسية من الكلمة التى ألقيناها باسم جبهة التحرير الوطنى فى مؤتمر التعريب المنعقد بالرباط على الصعيد العربى من 3 ابريل الى 7 من نسنة 1961 :

«ان الحرب التحررية المسلحة التى اكره الاستعمار الفرنسى الشعب الجزائرى على خوض غمارها منذ فاتح نوفمبر سنة 1954 فرضت مرة اخرى على الجزائريين احكامها القاسية . فتكررت نفس المأساة التى اصابت الشعب الجزائرى على اثر الاحتلال . فاغلقت المدارس العربية الحرة او حولت الى ثكنات احتشد فيها الجيش الفرنسى واعتقل الاساتذة

والمعلمون والطلبة ، وحجزت الجرائد الوطنية واصبحت اللغة العربية غريبة من جديد فى قعر دارها.

وهذه الاجراءات الهوجاء من طرف الادارة الاستعمارية الفرنسية لاعظم دليل ـ ان احتيج الى دليل ـ **على ان ثورتنا العتيدة الراهنة هى اولا وقبل كل شيء ثورة فى سبيل صيانة مقوماتنا الروحية الجوهرية وعلى رأسها الثقافة العربية ، اذ المقومات الروحية هى كما تعلمون انفس واقدس دعائم الامة . وكل مجاهد فى جبالنا ، وكل فدائى فى مدننا وكل مناضل فى منظماتنا السياسية والنقابية والثقافية ، سواء منهم من يتقن لغة الضاد او من صرفته الظروف الاستعمارية القاهرة عن عذب مواردها ، كل من هؤلاء مؤمن اشد الايمان وعيا ، ان انقاذ عروبة ثقافة وطنه يشكل اهم اهداف نضاله وتضحياته . فثورتنا الحاضرة ، ايها السادة ، من صميم مشاكل التعريب بل هى على الاصح من انجع حلول التعريب فى الجزائر» .**

فمسألة التعريب اذن هى من حيث المبدا من المسائل الطبيعية المسلم بها والتى لا يجادل فيها اى جزائرى كان كيفما كانت نزعته واتجاهاته الفلسفية والثقافية .

وكل ما فى الامر هو ان وجهات النظر والاختلافات بين آراء المواطنين تنحصر فى مشاكل انجاز التعريب من حيث الاساليب والآجال والعناصر التى تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة التى هى فى نفس الوقت شاقة ومشرفة ، فمن المواطنين من يذهب الى التاجيل بالتعريب بحجة ان اللغة العربية التى تخلفت عن الركب مدة سبعة قرون ليست قادرة الآن على تبليغ المفاهيم العلمية ومدلولات الحضارة العصرية المادية والمعنوية .

ان فى هذا الحكم على لغتنا مغالة ظاهرة وان كان يتضمن نصيبا من الحقيقة . ونحن نعرف ان هناك بلادا عربية كسوريا مثلا عربت تعليمها تعريبا تاما من القسم التحضيرى فى الابتدائى الى السنة الاخيرة من التعليم العالى . والمواد العلمية كلها وكذلك الطب والصيدلة تلقن بالعربية الفصحى ، ويوجد فى سوريا اطباء ومهندسون واساتذة فى الكيمياء والفيزياء تخرجوا من جامعات عربية تلقوا فيها جميع دروسهم بالعربية. وقيمتهم المهنية لا تقل عن قيمة زملائهم المتخرجين من الجامعات الاوربية ،بيد ان ضعف البعض منهم فى معرفة اللغات الاجنبية كالفرنسية او الانجليزية حال بينهم وبين الاطلاع على البحوث والدراسات العلمية والطبية التى تنشرها المجلات الخصوصية باحدى اللغات العالمية العصرية ، الامر الذى جعلهم نظرا لوفرة الاكتشافات التى تظهر باستمرار فى تلك الميادين يتخلفون عن رفقائهم الذين يحسنون لغة اجنبية .

فالنقص اذن لا يعود فى هذا المجال الى اللغة العربية ذاتها بل الى قلة عدد العلماء الاخصائيين العرب والى قلة بل عدم المجلات الدورية العلمية التى تنشر بتتابع باللسان العربى كل ما يخترع ويكتشف فى الحقل العلمى ، وقد ينجم عن هذه الملاحظات ان الازدواجية فى معرفة اللغات تظل ضرورية فى صعيد التعليم العالى وبالنسبة للطلبة الذين يتخصصون فى دراسة العلوم والطب والصيدلة . وذلك ما لم يتسع نطاق التعليم العالى بالعربية فى مختلف البلاد الشقيقة ، وما لم يتضاعف عدد المجلات العلمية العربية ويرتقى مستواها واذا ما اعتبرنا المجهودات التى تبذلها المجامع والجامعات اللغوية والعلمية العربية فى هذا السبيل تيقنا ان ذلك سيحدث قريبا بحول الله .

ومهما يكن من امر فاللغة العربية قادرة الآن على تبليغ كل ما يعهد اليها بتبليغه فيما يخص تعليم مختلف المواد وذلك فى حقلى المحسوسات والمعنويات على السواء اللهم الا ما كان من التعليم التقنى الذى لم تضبط فيه بعد اسماء جميع الادوات وتسمية جميع العمليات ، ففى هذا الميدان تظل الجزائر محتاجة ايضا الى استعمال اللغة الفرنسية بالاضافة الى العربية مدة من الزمان .

والذين يقولون بغير صلاحية العربية للتعليم في الظروف الراهنة يحاجون بانهم اذا قارنوا بين كتابين من كتب التلاوة المستعملة في السنة الاولى من الابتدائي مثلا لاحظوا ان الكتاب العربي لا يشتمل الا على 800 كلمة بينما الكتاب الفرنسي او الانجليزي او الايطالي يحتوي على 1.200 كلمة . وهم يرون في هذا الفرق الدليل القاطع على غناء اللغات الاجنبية وفقر العربية . ونحن لا ننكر ما لهذه الحجة من قيمة، غير أن الجناية ـ ان كانت ثمة جناية ـ لا تعود الى اللغة العربية بصفتها اداة تعبير ـ بل الى المجتمع العربي نفسه الذي كتب له ان يظل جامدا في الوقت الذي ازدهرت فيه الحضارة العصرية على اثر اكتشاف الطاقة البخارية اولا، والطاقة الكهربائية ثانيا. وبالتالي على اثر نمو الصناعة الحديثة في اوربا وامريكا .

وكان علماء الاجتماع قد علمونا ان المفردات والمصطلحات في اية لغة كانت لا تخلق الا بعد اختراع الاشياء والادوات والآلات واكتشاف المعاني والمدركات. فالكلمات تنشئها الضرورة للدلالة على الاشياء والمعاني.

وبما ان اشياء كثيرة ومعاني شتى ظهرت للوجود مع الاسماء المعبرة عنها في اوربا وامريكا دون ان تظهر في نفس الوقت في العالم العربي ، ظلت مجهولة لدى العرب برهة من الزمان ولما حاولوا اخذها عن اوربا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر صعبت عليهم تسميتها بالعربية ، هذا وان كان العالم العربي قد طوى مراحل شاسعة في مجال التعريب فلم يستطع لحد الآن أخذ كل ما اكتشف من آلات ومعان في العالم العربي لان استعمالها يتوقف على ارتقاء العرب في الميدانين التقني والعلمي .

فالمسألة اذن تتعلق اولا وقبل كل شيء بتطور المجتمع ، ومتى تطور المجتمع تطورت اللغة وجادت قرائح ابنائها بالكلمات الضرورية في مجال التخاطب العادي واكتشف علماؤها المصطلحات اللازمة في الميدان العلمي والحقلين الفني والتقني وذلك ما تقوم به المجامع العلمية واللغوية في البلاد العربية في الشرق وما تصدى لتنسيقه وتوحيده المكتب الدائم بالرباط ، فلا غرابة اذن ان يشتمل كتاب التلاوة الفرنسي على عدد ضخم من المفردات اذ هو وضع للاطفال الفرنسيين يصف لهم في نصوصه العالم المادي والعالم المعنوي الذين هم فيهما عائشون . فالكلمات التي تقدم اليهم تاتي للتعبير عن اشياء تحيط بهم وعن مدركات انسوها . ولم يبق الا ان يتعلموا اسماءها . وبعبارة اخرى فالكتاب وضع بالفرنسية لاطفال فرنسيين يتكلمون بالفرنسية في البيت وخارج المنزل . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فالعبارات والمفردات والمدركات التي يتضمنها الكتاب جاءت كلها او معظمها في مستوى التلاميذ الاجتماعي .

فينتج عن هذا ان التلاميذ الفرنسيين الذين يتلقون تلقينهم من هذا الكتاب الفرنسي هم بدون شك في مستوى ارفع من التلاميذ العرب الذين يتعلمون من كتاب عربي . ونحن نقول في مستوى ارفع من حيث المادة والمفردات والمدركات لا من حيث الذكاء والمواهب فاذا كانت المقارنة بين الكتاب العربي والكتاب الفرنسي او الانجليزي او الايطالي يقصد منها هذا الفرق فهي لا محالة منطقية مقبولة .

واذا رجعنا الى حالة الطفل المغربي في الجزائر وتونس والمغرب الاقصى وجدنا مستواه الاجتماعي اقرب بكثير الى مستوى الطفل العربي المشرقي منه الى الطفل الاوربي . هذا بالنسبة الى الجماهير الشعبية لا الى الاقليات التي ، بفضل رزقها ، تغلغلت شيئا ما في البيئة الاوربية في عهد الاستعمار وتمكنت هكذا من اكتساب ثقافة اوربية عصرية . فابناء اعضاء هذه الاقليات بدون شك في مستوى واحد او يكادون مع ابناء افراد الجاليات الاوربية في المشرق العربي ، وخاصة في المغرب العربي واكراه هؤلاء التلاميذ على استعمال الكتب العربية الشرقية يؤدي بدون شك الى انخفاض مستواهم . ولكن اكراه الاغلبية الساحقة من ابناء الشعب في الجزائر على استعمال الكتب الفرنسية يؤدي الى ارهاقهم عبثا لانهم يتعلمون عبارات ومفردات تدل على مدركات لم تكن صورها قد ارتسمت في ذهنهم وذاكرتهم وبعبارة اخرى فهم يقرأون في كتاب يصف لهم محيطا يتضمن اشياء لم يكن سبق لهم ان شاهدوها . وهذا مخالف لقواعد البيداغوجية وبسيكولوجية الاطفال .

ومما يزيد في الطين بلة ، هو انهم يتعلمونها في لغة غريبة عنهم . ونحن نعلم ان هناك مواطنين يزعمون ان العربية الفصحى لا تقل غرابة على الجزائريين من الفرنسيه . وهذا خطأ سافر لا بالنسبة الى الذين يستعملون العربية العامية فقط ولكن بالنسبة حتى لاولئك الذين يتكلمون احدى اللهجات البربرية «كالقبائلية» مثلا او «المزابية» ، لان هذه اللهجات مفعمة بالمفردات والعبارات العربية .

فمن الوجهة النظرية والمنطقية عملية تعريب التعليم في الجزائر اصبحت ضرورية منذ اليـــوم الذى استعادت فيه البلاد استقلالها ، بيد ان الجزائر ليست جزيرة منعزلة عن العالم تسير بين عشية وضحاها جميع شؤونها بحرية كاملة كان المؤثرات الاجنبية زالت في ظرف يوم او اسبوع .

ولا ينبغي ان ننسى ان الجزائر ظلت مـــدة قرن ونصف تقريبا تحت سيطرة الاجانب الذين سيروها على حسب هواهم وبمقتضى مصالحهم ، وان جهازا اداريا وتقنيا قد نظم في البلاد واصبح على مر الايام راسخا فيها مستحكما لا يمكن القضاء عليه دفعة واحدة لان في هذا الجهاز وجهها الحديث المناسب لمقتضيات العصر الذى نعيش فيه .

وليس معضل التعريب وحـــده يستوجب الحل المستعجل . ان هناك مسائل لاتقل حيوية عن هذا المشكل الا وهى الاحتفاظ بالمستوى التقنى والادارى التى وصلت اليه الجزائر على طريق الفرنسية . والكل يعلم ان قوة الشعوب والدول تتجسم في مستواهـا العلمي وفي اطاراتها التقنية والفنية . فتسيير الاقتصاد والتجارة والصناعة وحتى الفلاحة اصبح يتجسم في التقنية التى امست تنحصر في تلك الاقلية التى اشرنا اليها .

فليس للجزائر من بد في ان تحتفظ بذلك المكسب الذى تشخصه الاقلية المثقفة بشرط ان تكـون في خدمة الشعب وان تساعد الشعب على الارتقاء السريع. ثم ان الوضعية تغيرت بعد الاستقلال لان خيراتالبلاد عادت لذويها من ابناء الشعب الذين بفضلها سرعان ما يتداركون تخلفهم ويلتحقون بالركب . فالمجتمـع الجزائرى يتوفر اليوم على جميعالوسائل التى تمكنه من التطور المادى والمعنوى والفكرى . فما على مسيريه الا ان يحسنوا التصرف في هذه المرحلة الانتقالية وان يجدوا الحلول التى يرى فيها الشعب التوفيق بين ضرورة التعريب وبين ضرورة رفع مستوى البـلاد التقنى والاقتصادى ونحن نعتقد ان اول مرحلـة للتعريب في الجزائر تتعلق بتكوين الاطارات مـن معلمين في الابتدائى واساتذة في الثانوى الامر الذى لا يتحقق الا بانشاء مدارس لتكوين المعلمين والاساتذة في البلاد وبوضـــع (لا بترجمة) كتب مدرسيـة في مختلف المواد بالعربية .

والشروع في هذه العملية اى عملية تشييد هذه المدارس لا يقبل تأجيلا ولا تسويفا ، فالبـلاد التى تظل عشرات السنين مفتقرة الى اساتذة وخبراء وفنانى الدول الصديقة او الشقيقة ليست بالبلاد المستقلة . فان التجربة قد دلت على ان الافتقار الى الاجانب في ميادين التعليم والتربية والتقنية أشد خطورة وأغـــلى ثمنا من الاستعانات الاقتصادية .

والشرط الثانى يتشخص في قيمة الاطارات التى يجب تكوينها . فلا بد ان يكون المعلـــم او الاستاذ مقتدرا لا فيما يخص مستواه العلمي فحسب ولكن حتى فيما يتعلق بقدرته على التبليغ وتهذيب الاخلاق. وذلك لان الجانب التربوى ليس أقل اهمية من الجانب التعليمى . سيما وان الاستعمار لم يكتف بحرمنا من اغتراف المعارف بل صدنا ايضا عن مقوماتنا الاخلاقية الموروثة .

وتحقيق هذا المشروع لا يتم بالطبـــع الا بفضل اعانة البلاد العربية الاخرى . ونحن نظن ان هـــذه الاعانةلا ينفع تقديمها الا اذا كانت منظمة ومستجيبة لحاجيات البلاد . لاننا نعتقد ان تعريب الناشئة في الابتدائى والثانوى لا يتم الا بواسطة اساتذةجزائريين. ففى المرحلة التى نعيش فيها ، نحن نفتقر الى اساتذة أكفاء ليشتغلوا في التعليم العالى وفى مدارس تكوين المعلمين والاساتذة . وهؤلاء الاساتذة الكبار لا تتوفر عليهم الجزائر الآن فلذا نرى من الواجب استقدامهم من بلاد المشرق العربى .

ونحن نرى في ختام هذا البحث ان معضلة التعريب تتصل اتصالا متينا برفع مستوى الشعب في الميدان الاقتصادى كما اننا نرى رفـع مستواه الاقتصادى موصولا بتهذيبه وتثقيفه .

ونحن نشعر بان مشكلة التعريب في بلادنا أدق من ان تحلها هذه الملاحظات الوجيزة . فهى في حاجة اولا وقبل كل شيء الى وضع تصميم موقوت من طرف اساتـذة خبـراء وثوريين ضمن تخطيط اقتصـادى واجتماعى عام تحدد فيه بالتدقيق المبادىء والاهداف كما تعرف فيه المراحل . وهناك خطران يجب تجنبهما وهما :

1 ـ التهاون في مسألـــة التعريب التى هى مـن صميم المسائل الوطنية الثورية .

2 ـ الارتجال الذى يؤدى لا محالة الى التضحية باجيال من المواطنين ، وعلى كل فلا بد من اعتبـار ضرورة التعريب في اطار التقنية ورفع مستوىالشعب العلمي . ثم ان على واضعى تصميم التعريب ألا ينسوا أن عدد الجزائريين الذين يقرأون بالفرنسية يزيد على 15٪ بينما عدد القارئين بالعربية لا يتجاوز 5٪ .

حميد بن سالم